مجاور الباب الامامي

علي عدنان محسن
ماجستير حديث

الفصل الاول

العراق بين الاحتلالين المغولي والصفوي

خطة المغول العامة

كان غزو المغول للعراق جزءاً من حركة واسعة تستهدف اقامة امبراطورية مغولية نجحت فعلاً تحت قيادة جنكيز خان (١١٥٤ - ١٢٢٧) باحتلال جزء كبير من الصين وأواسط آسيا وايران وشرقي اوربا. وكان تقدم هولاكو الى العراق متمماً لغزوهم للعالم الإسلامي الشرقي الذي بدأه جنكيز خان في ٦١٦هـ/١٢١٩م ؛ وقد ساعدهم على تحقيق هدفهم الأنحلال والأنقسام الذي تسود البلاد .

تعريف

بدأ التهديد المغولي لتخوم العراق سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م ، وأرتبطت نتائجه بمصير الأقاليم المحيطة به من الشرق والشمال ولاسيما دولة خوارزم التي كانت بمثابة السد الذي يدرأ عنه الاخطار القادمة من الشرق ، لأن الخليفة العباسي لم يكن بأمكاناته العسكرية والسياسية المحدودة تستطيع مواجهة الامبراطورية المغولية التي ضمت ، وقت سقوط بغداد في شباط ١٢٥٨ م ، أغلب بلاد الصين وتركستان ومقاطعات من الهند وأجزاء كبيرة من روسيا وايران وآسيا الصغرى وكانت تملك مصادر هائلة من الرجال والسلاح والمال .

وتمكن المغول من القضاء على الدولة الخوارزمية وقتل زعيمها جلال

الدين منكبرتي في ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م ، واتسمت غاراتهم بالسرعة والبطش والوحشية لأشاعة البلبلة والفوضى والرعب في نفوس السكان ومارست القوات المغولية في هجماتها ابشع اساليب الفتك والتقتيل . ولم يظهر الخلفاء العباسيون المتأخرون اهتماما جديا بالخطر الداهم المحدق بادىء الأمر ، ولم يدركوا عميقا طبيعة ذلك الخطر الذي كان يتهدد بلادهم ، ولذلك لم يضعوا سياسة واضحة لمعالجته أو درئه او الاحتياط له . وكل مافعلوه هو جمع قوات بصورة مرتجلة وارسالها الى مواطن الخطر القريبة ، ثم تسريح اكثر الجنود بعد تراجع العدو والانتظار الى حين ظهور الخطر من جديد ، في وقت كان المغول يشكلون اعظم خطر يهدد كيان الدولة والامة . وقد اخذت مظاهر الانحلال السياسي تتزايد بعد ان تولي المستعصم بالله الخلافة سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م وقد تبوأها في احلك ظرف واجهته الدولة العباسية . ولم يكن لهذا الخليفة شخصية كفوءة تؤهله لحكم البلاد وزعامة العالم الاسلامي ، فقد كان لين العريكة مستضعف الرأي ضعيف التدبير غير عارف بمشاكل عصره ، غير مهيب في النفوس . وفي عهده تفرق الجند بعد ان قطعت ارزاقهم فلحق بعضهم بالشام واضطر بعضهم الى التسول .

احتلال العراق ومقاومة أهله

وفي ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م ارسل الأمبراطور مانغوخان هولاكو لفتح آسيا الغربية ، فأخذت جيوشه تتحرك من مختلف المواقع التي كانت ترابط فيها وفي خلال تقدمه البطيء دمر قلاع الأسماعيلية واسر زعيمها خورشاه في ٦٥٤ / ١٢٥٦ ثم وصل همذان في السنة التالية . ومن هناك ارسل الى الخليفة يتهدده ويتوعده مطالبا اياه بالتسليم ورفض الخليفة ذلك الطلب .

وفي اوائل محرم ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م اشتبكت القوات العباسية بقودها

الدويدار الصغير مجاهد الدين ايبك ، بانقوات المغولية عند الدجيل (بين بغداد وسامراء) وانتهت المعركة بتحطيم الجيش العباسي • وتقدم هولاكو من خانقين بالجيش المغولي الرئيسي المؤلف من ٢٠٠٫٠٠٠ محارب الى بغداد ، فنزل الجانب الشرقي منها في اواسط محرم ، واطبقت قواته عليها من كل الجهات وبدأ القتال في اواخر محرم ، ونجح المغول في اختراق السور من بعض المواضع •

وفشلت محاولات الخليفة في التوصل الى حل سلمي ، فأضطر الى الخروج مع اسرته لمقابلة هولاكو ، فحجزوا ثم قتلوا • ودخل الغزاة بغداد في ٥ صفر ٦٥٦/١٢٥٨ وفتكوا بأهلها سبعة ايام او تزيد ، ولم يفرق فيها بين الرجال والنساء والاطفال حتى لم يبق من اهل البلد ومَنْ التجأ اليهم من اهل السواد الا القليل ، والقيت النار في معظم البلد ، و «استولى الخراب على المدينة وكانت القتلى في الدروب والأسواق كالتلول ، ووقعت الامطار عليهم ووطأتهم الخيول فاستحالت صورهم وصاروا مثلة بتشوه الخلقة ... » وقدر عدد مَنْ قتل من اهل بغداد بما يزيد على ٨٠٠٫٠٠٠ نفس ، عدا من القي من الاطفال في الوجل ومن هلك في القنى والآبار والسراديب فمات جوعا وخوفا ، وربما كان في ذلك الرقم شيء من المبالغة الا انه يدل على حجم المذبحة المريعة التي تعرض لها سكان بغداد • وبعد انتهاء عمليات الاستباحة ، امر هولاكو بأصلاح بعض ماخرب وترميم الاسواق ورفع جثث القتلى من الناس والحيوان • ورحل هولاكو عن المدينة بعد ان فوض امرها الى جماعة معينة لاعادة تنظيمها ، وابقى على التشكيلات الادارية كما كانت في العصر العباسي الاخير • ووضع على رأس الادارة بعض المسؤولين في العهد السابق للاستفادة منهم ريثما تتكون مجموعة من

الاداريين المغول . ومن هؤلاء مؤيد الدين بن العلقمي وزيرا ، وفخر الدين الدامغاني صاحب الديوان والقضاء ، ونجم الدين بن الدرنوس ، وعين شحنة للمدينة علي بهادر ، وأبقى فرقة من الجيش المغولي مؤلفه من ثلاثة آلاف محارب حامية للمدينة . وارسلت قوات مغولية الى انحاء العراق الاخرى فأخضعت مدنه وقراه ، ورفضت أربل وواسط الخضوع للمحتل الغاشم ، وأبدت من المقاومة مادفع بالغزاة الى تشديد حصارهم عليهما، فكانت خسائر ابنائها نحو ٤٠٠٠٠ قتيل .

وثارت الموصل في ٦٥٩ / ١٢٦٠ وشجعها الانتصار الكبير الذي حققه العرب في معركة عين جالوت في تلك السنة . واستطاعت بقيادة الملك الصالح ابن اسماعيل ، ان تقاوم القوات المغولية مدة تزيد على السنة عجز فيها الغزاة عن اختراقها . ولكن فقدان المدينة للمؤن اجبر اميرها على طلب الصلح فوافق القائد المغولي سنداغو ، ولكن لما خرج اليه الأمير وولده قتل الولد وارسل الامير وأخاه الطفل وكتبغا الكاهل مع بعض اصحابهما الى هولاكو ، فأمر الطاغية بسلخ وجه الصالح بن اسماعيل وهو حي ثم قتل اخاه مع من رافقهم من الاتباع . ودخل الجيش المغولي الموصل في رمضان ٦٦٠ / ١٢٦١ فقتل غالب اهلها وأخذ منهم اسرى حتى خوت المدينة ، وبعد انتهاء استباحتها ورحيل القوات المغولية عاد اليها من كان مختبئا من اهلها في الجبال والمغارات .

وهكذا خضعت اغلب مناطق العراق ، وقتل عدد كبير من سكانه وخربت اجزاء كبيرة منه ، وقتل معظم افراد الاسرة العباسية ما عدا انفار قلائل استطاعوا الفرار والنجاة ومنهم ابو القاسم احمد بن الظاهر بأمر الله الذي اعلنه سلطان مصر الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م خليفة بأسم المستنصر بالله ، ولم تكن له من السلطة الا الاسم .

ادارة الاحتلال

تحول العراق بعد هذه الكارثة الى ولاية من ولايات الامبراطورية الايلخانية المترامية الاطراف التي شملت في اوج قوتها البلاد الواقعة ما بين نهر جيحون والمحيط الهندي ومن السند الى الفرات مع جزء من آسيا الصغرى وبعض القوقاز ، قاعدتها اذربيجان ، وتابعة من الناحية الشكلية للامبراطورية المغولية . بعدما كانت بغداد قاعدة الخلافة وعاصمة العالم الأسلامي مدة تربو على خمسة قرون اصبحت تبريز ثم سلطانية قاعدتي الأيلخانيين الرئيستين ، وكان طبيعيا ان تتوجه عناية حكام هذه الأمبراطورية الى ايران دون العراق .

وقسم العراق على ولايات ثلاث :

١ ـ العراق ، وهو القسم الأهم ، ويمتد مابين الزاب الأعلى الى عبادان طولاً ، ومن القادسية الى حلوان عرضاً .

٢ ـ الجزيرة الفراتية ، وفيها الموصل وسنجار والعمادية واربيل .

٣ ـ بلاد الجبل وفيها مدينة شهرزور .

وكان العراق احدى الولايات الأيلخانية المهمة التي كانت تسمى ممالك ، ويدعى حكامها احيانا ملوكا . وكانت عاصمته بغداد وترد في كتابة المعاصرين بأسم مدينة السلام ، وقد زارها الامراء الأيلخان عدة مرات .

والغيت في هذا العهد اكثر الدواوين وبقي ديوان الوزير وديوان الزمام ثم ادمج الديوانان في ديوان واحد صار رئيسه صاحب الديوان وهو الحاكم الأعلى في العراق ، وهو الذي يعين كبار الموظفين وغيرهم . والى جانب صاحب الديوان ، هناك كاتب السلة ، وهو مسؤول عن كتّاب الولاية وبيده اسرارها ، ويطلق عليه احيانا اسم (كاتب العراق) . وبقي منصب قاضي القضاة وهو الذي يعين القضاة في مختلف انحاء البلاد ويتولى امر مراقبتهم

مكتبة احمد

ونقلهم وعزلهم • وبقيت الحسبة وصاحبها المحتسب ومهمته الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراقبة الاسواق كما كانت هناك وظيفتان اداريتان هما : الصدر والناظر • والصدر يطلق على رئيس الوحدة الادارية ويشرف على ادارة القوات المسلحة في تلك الوحدة وحماية أمنها ، اما الناظر فهو موظف من اولى مهماته النظر في الشؤون المالية •

واهم الوظائف العسكرية : الشحنة ونائب الشرطة • فأما الشحنة فكان كالقائد العسكري الاعلى ومهمته المحافظة على الامن والقضاء على الثورات وحركات التمرد ومراقبة صاحب الديوان لضمان ولائه للدولة ، ولهذا ظل أمر هذه الوظيفة بأيدي المغول عامة الى آخر العهد الايلخاني • اما نائب الشرطة فأنه مسؤول عن المحافظة على الأمن في بغداد •

وكانت ادارة الامبراطورية الأيلخانية لا مركزية ، ويتمتع حاكم العراق بدرجة من الأستقلال في ادارة شؤونه مقابل تقديمه المال اللازم لخزينة الأمبراطور وارسال القوات العسكرية المناسبة له في حالات الحرب ، ولكن هذه اللامركزية لم تكن كاملة لأن الحاكم الأيلخان كان يزور العراق ويقضي الشتاء بين ربوعه في بعض الاحيان • كما كان يرسل مشرفا يستقصي شؤونه عن كثب ويرفع اليه تقريرا عنه •

وكانت سلطة الأيلخان غير محدودة ، وله حق قتل من يريد ولم تكن للشعب حقوق بل كانت عليهم واجبات اهمها الطاعة ودفع الضرائب المتنوعة • ومن اهم سمات حكومة العراق في هذا العهد عدم الاستقرار والفساد •

الا ان ذلك العهد لم يخل من اعمال عمرانية نادرة ولا سيما في عهد الأيلخان السابع غازان محمود (١٢٩٥ ــ ١٣٠٣ م) الذي اصبح الاسلام في عهده دين الدولة الرسمي • الا ان تلك الاصلاحات كانت وقتية

كافة المناهج الدراسية